الفصل الأول

التربية القديمة وأساليبها

التربية القديمة :

كانت التربية القديمة تهدف إلى تشكيل طبيعة الطفل بأن تفرض عليه طريقة التفكير التقليدية وطريقة العمل العادية ، بله الاستجابة العاطفية . أى أنها أرادت أن تحل محل التأثيرات الطبيعية الغريزية للطفل تأثيرات صناعية نمتها خلال عدة أجيال الاتجاهات الدينية والعقلية والاجتماعية التى نظرت إلى العواطف البشرية على أنها شر ، ورأت لذلك أنه يتحتم أن يحال بين القلب ورغباته الطبيعية ، ونظرت إلى الحواس على أنها لا يمكن الثقة بها ولذا فهى ليست جديرة بأن تكون أساساً للمعرفة ، فالنزعات الإنسانية والغرائز تنبع من طبيعة شريرة فى أصلها ، ولذا فإن وجهتها هى الشر ، ويجب أن نقتلها ، فالرغبات الطبيعية التى كانت ترمى التربية والدين إلى كبتها والقضاء عليها كان يجب أن يتحاشاها المربى ، وكل نشاط أو عمل يحتاج إلى مجهود عقلى كبير أو يبعث على الاشمئزاز العاطفى ، كان يحكم عليه بأن له قيمة تربوية ، وكان هدف التربية أن يصب الطفل فى قوالب من السلوك غير طبيعية ، حيث يكون الدافع الطبيعى مختفياً وراء السلوك الذى يرضاه ويحتم وجوده الكبار ولو كان هذا السلوك يخفى وراءه دافعاً يغاير التعبير الخارجى .

وقد تضافرت العقائد الدينية ،أو الفلسفية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والتربوية على اتخاذ هذا الموقف من طبيعة الطفل . ولم يقتصر الأمر على وجهات النظر الدينية والفلسفية فى رفض التربية المؤسسة على تدريب الحواس ، واستغلال الخيال ، وتوجيه الميول الطبيعية ، والغرائز ، بل شاركتهما فى ذلك

وجهة النظر السيكولوجية ، إذ اعتقد علماء النفس أن العقل يتكون من مجموعة متباينة من الملكات ، تنمو وتتمرن بما يناسبها من الأعمال ، وتتوقف قيمتها على صعوبة العمل الذى يؤديه ، ولم ينظر إلى هذه الملكات على أنها متصلة بعضها ببعض ، ولذا اختلفت العوامل المهذبة لها . غير أن هذه الملكات لم تتساو فى قيمتها ، وأرقى هذه القوى فى نظرهم هى ملكة التفكير ، وكانوا يعملون على تنظيمها عن طريق الرياضات العقلية ، والمجادلات المنطقية ، واللغة أما قوة الذاكرة فكانوا يعتبرونها العماد الذى يرتكز عليه جميع الملكات الأخرى ، وقاسوا عليها نجاح العملية التربوية ، ولهذا أخذ تدريب ملكة الذاكرة يتبوأ المكان الأكبر . وكان أحسن طريق لتدريبهم هو حفظ مواد لا تمت إلى طبيعة الطفل بأى صلة .

وقد ساعدت النظم الاجتماعية القائمة ، على تدعيم هذه الآراء ، فكان الطفل يعتبر « رجلا مصغراً » لا يعترف له بقيمة أو حقوق حتى يتمكن من تقليد الرجال البالغين ؛ وفى هذا العصر الذى ساد فيه التكلف والتظاهر فى الملبس ، والعادات والسلوك والحفلات ، كان الطفل يصبغ بصبغة الكبار وتعكس لنا المؤلفات الأدبية التى ظهرت قبل عصر روسو صورة الطفل كما اعتبره الناس عندئذ . فهوناضج فى كلامه ، ناضج فى تفكيره ، ناضج فى أعماله . فكلامه وتفكيره ، وأعماله لم تكن لتختلف كثيراً عن كلام الرجال ، وتفكيرهم وأعمالهم . وأما من ناحية التربية فكان يعامل أيضاً معاملة الكبار ويدرس مايدرسونه من مواد ، فاللغات مثلا : كان يدرسها من جميع وجوهها المنطقية والنحوية ، ويسيطر عليها بإجهاد الذاكرة ، ويستعملها بالأسلوب التقليدى نفسه الذى كان يستعمله أهل العصر فى هذه الحياة التى بنيت على نظم كلها تكلف وتصنع .

تلك هى التربية التى كانت سائدة فى عصر روسو ، وما قبل روسو ، وظلت موجودة طيلة القرن التاسع عشر برغم صيحات قادة التربية الذين تزعمهم روسو . ويمكن أن نلخص الأسس التى قامت عليها الأساليب التربوية القديمة فيما يأتى :

أولا : لقد قدر لنا فى هذه الحياة ما قدر فواجبنا الإذعان لأحكام القـــدر .

ثانياً : الشر فى الطفل طبع لا يستأصله إلا مراقبة الوالدين المستمرة .

ثالثاً : لكل منا فى هذه الحياة حدود لا يتعداها ،حتى الطفل يجب أن يبقى فى مكانه ، ولو بالرغم منه ، والوسيلة لذلك هى الإرهاب والعقاب .

فلنستعرض هذه الأجيال السابقة حيث تحكمت فى أساليب تربيتهم هذه الأسس ، ولنناقش كل أساس على حدة ، ومدى ما وصل إليه الآن .

الأساس الأول :

لقد كان هذا الأساس بما يتضمنه من إذعان لمجريات الحوادث عبئاً ثقيلا يرزح تحته الناس وخاصة لتطبيقه وقت ذاك ، على الحالة الصحية ، فمن يمرض وجب عليه ألا يشكو ، حتى لقد كان من المأثور فى تواريخ حياة مشاهير ذلك العصر أن نرى تلك العبارة الشائعة : « لقد جاهد فى القيام بعمله بالرغم عن تردد علته المزمنة عليه » .

فالناس إذاً كانوا مرضى دائماً ، والموت يطفئ مشعل الحياة فى سن مبكرة عنها اليوم ، وعلوم الطب ووظائف الأعضاء مازالت فى مهدها ضعيفة الأثر فى مقاومة الأمراض مقاومة فعالة ، فما كان على الشخص إلا أن يتجلد بقوة فوق طاقة البشر ليتقبل تلك الأحكام الصارمة المنسوبة إلى القضاء ، لا لشىء إلا لأن القضاء مقدس وحكمه أيضاً مقدس . أما اليوم فإننا لا نذعن لهذا الادعاء ، بل نتمرد عليه ، وننقصه من أوله ، وليس هذا لأننا فقدنا إيماننا وتقديسنا لحكم الله ، ولكن لأنه من العبث أن نشرك « الميكروب » مع الله فى القدسية والتعظيم فنرضى بسطوته ، ونرضخ لوطأته .

ومن الأمثلة على التطور الحادث فى هذا الاعتقاد ما كان مؤكداً منذ جيلين عندما كان يذهب موظف إلى أواسط أفريقيا ، لقد كان ينتابه الجزع

والهلع لأنه يعرف مصيره الأكيـــد ، فهو مساق إلى « الـــكوليرا » ، و « التيفوس » ، حيث لا مناص من الموت ، أما اليوم فهو وعائلته يعرفون أين يكمن الخطر ويوجد ميكروب المرض، فيعتنون بنظافة خدمهم ونظافة ملابسهم لعلمهم أن فى طيات الثوب القذر تكمن ميكروبات تبذر الأمراض وتحصد الأرواح .

الأساس الثانى :

هو الأساس القاسى الذى يحكم على الطفل بأنه شرير ، لا لشىء إلا لأنه يلعب أو لأنه جائع يطلب المزيد من الطعام ليسد به رمقه . فكأن الطفل إذاً رُجيّل عليه ما على الرجل من قيود ، ولعل هذا كله راجع لذيوع المثل القائل : « من شب على شىء شاب عليه » .

فالطفل الذى يلعب ، يشب وهو يلعب ، ويشيب وهو يلعب ، ولا سبيل إلى الاصلاح إلا بصولة العصا ، وإرهاب السوط .

ولقد اشتط فى استعمال هذا العلاج حتى لقد بذرت فى نفوس هؤلاء الأطفال بذور الخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، وتردد صدى ذلك فى نفوسهم عندما كبروا فصاروا فى شك من أمر دنياهم وآخرتهم . وإذا تراجعنا بعيداً حيث نصل إلى القرن الثامن عشر ، نجد أن التربية متناقضة الأوضاع ، فالوالد يحب ولده ، ويتمنى له الخير كله ، لكنه مع ذلك يقسو عليه فى المعاملة قسوة تزيد على ما يعامل به أشد المجرمين بطشاً فى هذه الأيام .

وهذا مثال لتلك التربية تضمنه خطاب من سيدة لأخرى ، تحدثها فيه عن تربيتها لأولادها :

« عندما بلغوا من العمر سنة واحدة علمتهم العصا والخوف منها كيف يحتفظ البيت بهم وبسكونه معاً ، وكيف يكون عويلهم وصراخهم همساً رقيقاً . ولما بلغوا الخامسة من عمرهم سمح لهم بيوم واحد ليتعلموا فيه الأحرف الهجائية ، ولو أن أحدهم قد تعلمها فى ساعات قليلة ، وعندما تعلموا هذه

الحروف الهجائية ، بدءوا مباشرة فى دراسة المقطوعة الأولى من كتاب شعرى قراءة ثم هجاء فكتابة إملائية ثم المقطوعة التالية وهكذا . ولم يكن هناك ما يسمى لعباً أو لهواً ، بل جد وعمل ست ساعات متوالية كل يوم » .

وإليك ما كتبته سيدة أخرى ابنة قسيس تصف أيام طفولتها كمثال لطفولة القرن الثامن عشر : « لقد كان الزى الشائع للأطفال أن يلبسوا بتيقة من الحديد تتدلى على الكتفين . وقد كان من نصيبى أن غُللتُ فى واحدة منها منذ السادسة من عمرى إلى الثالثة عشرة ، من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر . وقلما خلعتها أثناء هذه الفترات اليومية ، وكان علىّ أن أتلقى دروساً وأنا واقفة بهذا الزى المتعب ، فما كان يسمح لى أن أجلس فى حضرة أحد حتى والدتى ، ولم يكن يُقدم لى من الغذاء إلا كمية ضئيلة ممثلة فى كسرة خبز وبعض اللبن البارد ، وعندما أردت أن أتحرر من قيود هذا الزى ، لم أقدر على كبح جماح نفسى فى التعبير عن ابتهاجى بالانطلاق إلى الغابة المجاورة ، أعدو ما يزيد على نصف ميل هائمة دون وجهة معينة . وقبل أن أبلغ الثانية عشرة من عمرى كنت مرغمة على ترجمة مقطوعة من الشعر اللاتينى يومياً ، وأنا واقفة أرسف فى أغلال هذا الزى » .

ومما تقدم يتضح لنا خطأ ذلك الأساس الذى تميزت به التربية القديمة .

أما اليوم ولحسن الحظ فقد علمنا الكثير عن وظائف الأعضاء وحاجاتها ، أصبحنا نعلم أنه لا بد للاحتفاظ بصحتنا من أن نتمتع بحرارة الشمس والهواء الطلق ، ونحن وإن لم نتخذ من تلك الوسائل الصحية ضماناً لسلامتنا ، فنحن على الأقل نتخلص من نقد مرير يوجهه إلينا غيرنا .

لقد أصبحت الحياة الآن أكثر بهجة وتسلية من ذى قبل ، وإن المدرسة لم تعد هى فقط سبيل الطفولة إليها : بل هى وغيرها من المعاهد الاجتماعية التى تمتّ للمدرسة بصلة . سواء الوحدات الطبية المدرسية أم الحدائق العامة .

كل هذا بدأ منذ العصر الفيكتورى ، حيث وضع الأساس للقضاء على القسوة ضد الطفولة ، وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى جاءت بفلسفة

جديدة ، فالرجال لا يأملون أن تشرق عليهم شمس الغد فما كان منهم إلا أن يقولوا : « دعنا نشرب ونمرح فغداً سينتهى أمرنا » لكن أمرهم لم ينته غدا كما حسبوا ، وسيمرحون لا فى الغد فقط ، بل طالما تتفتح أكمام الأزهار وتغرد الطيور .

الأساس الثالث :

لنتناول الأساس الأخير من الثالوث البغيض ، الذى قامت عليه التربية القديمة ، ذلك الأساس الذى يحدد الأوضاع فى المجتمع ، ويفصل بينها بجدار متراص البنيان ، فلم يعد هناك ذلك الحاجز الكبير بين العمل والمرح ، بل إن العامل المرح أكثر إنتاجاً . وها نحن أولاء نرى العامل وقد توفرت له وسائل التسلية والتسرية ، فيجدها لنفسه وعائلته أنّى يطلبها ، فمن سيارات إلى نزهات خلوية وخارجية .

هذه الانقلابات فى أسس التربية ومبادئ الحياة ، إن لم تكن قد عمت ، وانتشرت تعاليمها فى ربوع العالم تمام الانتشار ، فستصل إلى ذلك يوما ما .

ونحن إن عارضنا هذا التيار المنتشر ، فلن تجدى معارضتنا فتيلا ، فى كل مكان مدرسة حديثة تربى أجيالا جديدة ، رضعت من لبان هذه التعاليم ، ونمت على الإيمان والعقيدة الراسخة بها ، وكرست جهودها لتحقيق هذه المثل التى تهدف إليها التربية الحديثة ، فلن يبقى فى الوجود مثل هذا المجتمع ، ذى المصانع الكثيبة أو المدن المفتقرة إلى المكتبات العامة ، أو القوانين الجائرة المتعسفة ، فهذه الثلاثون عاماً الأخيرة قد حققت انقلاباً كبيراً ما كان من المتوقع أن يتم ، ولنا نحن أن نتوقع سير التيار الانقلابى فى الثلاثين عاماً القادمة كما سار فى السالفة على الأقل .

ومما يواجه المربين من المشاكل ، إعداد النشء إعداداً يؤهلهم للتغلب على مشاكل المستقبل ، فمما لا شك فيه أن لكل عصر ولكل جيل مشاكله الخاصة ، فما كان مقصوداً بالتربية بالأمس ، لم يعد هدفها اليوم ، وهدف

اليوم لن يكون مقصد رجال الغد ، فالعالم دائم التقدم والتغير .

فبالأمس كان الناس يَطْبَعون أنفسهم على الطاعة العمياء ، لحكامهم ومدرسيهم ، وكل من له الأمر عليهم ، ولم يكن همهم إلا كسب ما يقتاتون به من ردىء الطعام ، وما يكتسون به من ردىء الملبس ، لقد كانوا منذ بدء عهدهم بالحياة فى المدارس ، يسامون العذاب ، ويعرضون للجوع يفتت أكبادهم ، والبرد ينحل أجسامهم ، والموت يحصد أرواحهم ، ومن لا يدركه الموت منهم فعليه أن يروض نفسه على التقشف والزهد ، حتى يطيب للسماء أن تناديه ، وما كان التعليم العالى ليزيد عن الأولى شيئاً ، ويخفف من حدة هذه الحياة ، بل يزيد منها كتباً تستظهر ، والمبدأ دائماً واحد ، هو إعداد مواطن خامل ؛ ليتبوأ مركزه الجامد فى ذلك المجتمع الراكد .

أما المرأة فكل تربيتها تعليم القراءة والكتابة والتدبير المنزلى .

أما اليوم فالتربية تقفز بالطفل إلى حالة تؤهله لأن يتمتع بالحياة . وهذا قانون التعليم الأوّلى الإنجليزى يبين مقاصد التربية فى فقرة من فقراته [١] :

« إن غرض التعليم الأولى الشعبى هو أن يبنى ويقوى الأخلاق ، ويوسع المدارك ويسمو بها ، وينتهز مدة الدراسة لإعداد الطفل إعداداً صالحاً لما تتطلبه حياته المقبلة ، فيعينه على تكييف نفسه تكييفاً عمليًّا وفكريًّا لهدفه فى الحياة ، ويعتمد هذا التكييف على تكوين العادات وإنمائها ، تلك العادات التى تبذر فى نفوس الأطفال حب المعرفة لما يحيط بهم ، معتمدين فى تحصيلها على أنفسهم مع إلمامهم بما يتفق وحالتهم ، من مواد الأدب والاجتماع واللغة ، التى تيسر لهم القدرة على التعبير عما فى نفوسهم ، وتعرفهم بموطنهم ، وتطبعهم على حب ما هو صالح ، وعلاوة على هذا تعمل المدرسة على تهذيب الغرائز الطبيعية ، وتقويتها ، حتى تدفع بالطفل فى مستقبل حياته إلى الوجهة العملية الطبيعية له ، مع المحافظة على صحة جسمه ، وتقويته ، لا بساعات

---

(١) Elementary Education Provincial Code 1922, p. 1.

يقضيها فى التمرين الرياضى فقط بل بتفهيمه ماذا يعمل ، ولماذا ينهج هذه الطريقة دون غيرها .

وبما أن وقت المعلم لا يتسع لكل هذه الأشياء ، إلا أنه يمكنه أن يضع أمام الطفل الأساس العام لهذه العادات ، كى يخلق منه مواطناً صالحاً ، يقدر كل ما هو نبيل ، ويكون مستعداً للتضحية بالنفس فى سبيل الحق بعيداً عن الأنانية وحب الذات ، ذا خلق اجتماعى رياضى .

ولنا أن نأمل فى الغد تحقيق هذه الآمال التى لا يتسع اليوم لتحقيقها » .

المراجع

1. A.G. Hughes and E.H. Hughes : Learning and Teaching.
2. Sturt and Oakden : Matter and Method in Education.
3. Monroe : Text-Book in the History of Education.

٤ ــ تطور النظرية التربوية ، تأليف الأستاذ صالح عبد العزيز .

obeikandl.com